المحاضرة الرابعة

فروع علم البلاغة

لقد أخذ البلاغيون ينحون بالبلاغة نحو الاستقلال والتخصص شيئا فشيئا، إلى أن استوت علما قائما بذاته، كما أخذت مباحث البلاغة في التبلور والتشكل هي الأخرى، حتى خلصت إلى ثلاثة فروع، علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع[1].

علم المعاني:

يعود الفضل في تقرير مسائل علم المعاني وشرح تفاصيله وتوسيع مباحثه إلى العالم الفذ عبد القاهر الجرجاني الذي استوعب هذا العلم من أطرافه، فلم يدع لمن جاؤوا بعده ما يضيفونه إليه أو ما يستدركونه عليه؛ لذلك كثرت الشروح والحواشي والاختصارات لكتابيْ الدلائل والأسرار إلى الدرجة التي أسلمت البلاغة نفسها إلى الجمود والتكرار.

ويُعرّف العلماء علم المعاني بأنه «أصول وقواعد يُعرف بها كيفية مطابقة الكلام لمقتضى الحال بحيث يكون وفق الغرض الذي سيق له »[2]، وموضوع هذا العلم هو اللفظ من حيث إفادته الأغراض المقصودة من الكلام، وهي ما تسمى بالمعاني الثواني.

وأما الغرض من هذا العلم فهو الكشف عن أسرار البلاغة في القرآن الكريم، ومعرفة إعجازه من هذا الوجه، ومن جهة ما أودعه الله تعالى فيه من جودة السبك وحسن الوصف وبراعة التراكيب وسهولتها ولطف الإيجاز وجزالة الألفاظ وغير ذلك من محاسنه، بالإضافة إلى الوقوف على أسرار البلاغة والفصاحة في كلام العرب منظومه ومنثوره.

علم البيان:

يرجع الفضل في تأسيس هذا العلم إلى عمرو بن بحر الجاحظ، الذي صنف كتابه المسمى:"البيان والتبيين"، وبالرغم من عدم اعتناء الجاحظ بالمصطلحات والحدود النظرية لهذا الفن، إلا أنه تناول فيه الكناية والاستعارة والمجاز والتشبيه مكتفيا بإيراد الشواهد عنها من الشعر والنثر.

إن الجاحظ في هذا الحقل المعرفي لم يكن هو من انفرد بهذه الجهود، بل كانت هناك جهود أخرى نجدها عند ابن قتيبة والرماني في النكت والباقلاني في إعجاز القرآن وغيرهم، وذلك قبل أن تنهض نهضة حقيقية عند عبد القاهر الجرجاني في أسرار البلاغة والزمخشري في الكشاف، ثم استسلامها بعد ذلك للقاعدة والقانون عند السكاكي في المفتاح والخطيب القزويني في التلخيص.

ويعرف العلماء علم البيان بأنه «أصول وقواعد يُعرف بها إيراد المعنى الواحد بطرق يختلف بعضها عن بعض في وضوح الدلالة على نفس ذلك المعنى، ولا بد من اعتبار

[1] يُنظر: عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 2009م/1430هـ، ص25.
[2] جواهر البلاغة، ص46.

المطابقة لمقتضى الحال دائما »[1]، فهو إذن علم يُتمكّن به من إبراز المعنى بصور مختلفة ومتفاوتة في درجة الوضوح.

علم البديع:

اشتهر علم البديع في العصر العباسي كظاهرة شعرية انتدب لها الشعراء المولدون من أمثال بشار بن برد ومسلم بن الوليد وأبي نواس، وهو ما دعا الخليفة العباسي ابن المعتز إلى تصنيف كتابه "كتاب البديع"، ثم جاء أبو تمام الذي مثّل هذا التيار وبالغ فيه.

ويعرفه الخطيب القزويني بقوله: «علم يُعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة »[2]، إذن فعلم البديع معنيّ بتتبع اللفظ وإيراده على نحو ينمّق به الكلام ويحسّنه، سواء من جهة اللفظ أو المعنى، وعلى ذلك فمحسّنات الكلام تنقسم إلى لفظية كالسجع والجناس وأخرى معنوية كالمطابقة.

وقد أجمع العلماء على أن هذه المحسنات وخصوصا اللفظية منها لا تقع موقعها من الحسن إلا إذا طلبها المعنى ولم تطلبه، وجاءت عفوا دون تكلف أو تعسف.

ومن المحسنات المعنوية: التورية واللف والنشر والجمع والتفريق والتقسيم وحسن التعليل وتأكيد المدح أو الذم بما يشبه الذم أو المدح والإدماج وتجاهل العارف والمبالغة ومراعاة النظير والعكس والتبديل والمشاكلة والمطابقة والمذهب الكلامي وغيره.

ومن المحسنات اللفظية: الجناس والسجع ورد العجز على الصدر والقلب والتوشيح والتصريع ولزوم ما لا يلزم والانسجام وغيره.

تطبيق:

ـ عرف علم المعاني، وما المقصود بالمعاني الثواني؟

ـ ما مدى إسهام كل من الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني في وضع علم البيان وتأسيس أصوله ؟

ـ عرّف علم البيان، ووضّح بأمثلة.

ـ عرّف علم البديع، ومن أول من صنّف فيه ؟

ـ متى يكون المحسّن البديعي محسّنا للكلام فعلا ؟

[1] المرجع نفسه، ص216.

[2] الإيضاح في علوم البلاغة، ص255.